الفصل الخامس

نحو جماليات جديدة للشعر المعاصر

« أنا مسافرٌ أدخلُ البوابةَ الممنوعة
وشارتى التى أرفعُها :
قصائدِى الطيِّعة المطيعة »

محمّد عفيفى مطر

نحو جماليات جديدة .. للشعر المعاصر

« أنا مُسافرٌ مغترب ، غسلتُ طينتى فى مطرِ الفصُول
أرقصُ فى الأعراسِ أوأُنشدُ فى مدائحِ الفحولْ
أو أنشدُ المرثيةَ التى أعددتُها لكلِ مَأتم
أو أسكبُ النبيذَ - للذى يدفعُ - من عصارةِ الدم .
حنجرٌ أنا لكلِ ناسحٍ وصاهلٍ وشاحج
للنّدبِ والطبول
مُؤتمنٌ على الحريمِ ، عالمٌ فى شَجرِ الأنساب أو فى
كيمياءِ الجنس للمنيِ والأكُول .
أدخلُ فى المدائن الزّانية المدْخُولةِ الأصول
أجعلُها طاهرةً فى كُتبِ النسّابةِ العدُول
أدخلُها - متخماً بالطبع - فى أزمنةِ المجاعة
أجعلُها حديقةً مثمرةً ، أو غيمةً ممطرةً فى كتبِ التاريخ
والشريعة
أنا مسافر أدخلُ البوابةَ المُمنوعة
وشارتى التى أرفعُها : قصائدى الطيّعة المُطيعة »[1] .

بهذا الصوت المتفرد المركب - دوما - يلقانا الشاعر محمد عفيفى مطر ، الذى يعدّ واحداً من شعرائنا المعاصرين ، الذين يبذلون جهدا صبورا فى سبيل إحداث ثورة حقيقية فى بنية القصيدة العربية الجديدة ، وشاعرنا يحاول جَاداً كسر كل ما يتصل بالتقاليد الجمالية لما عرف « بعمود الشعر العربى » ، بحيث نستطيع القول بأن الشاعر يسهم فى إحداث « نموذج » جديد للقصيدة .

وعلى هدا فإن أىّ شاعر حالة كونه مجدداً يثير شعره قضية نقدية وخصومة أدبية .. أما إذا كان خارجا ومغيرًا لكل أدوات تشكيل فنه ، فالذى لا ريب فيه أنه يحدث معركة نقدية ، ويثير قضية خلافية على مستوى صناعة الشعر ونقده فى آن واحد ، ذلك أن الشاعر إذ يجدد أدوات فنه ، وطرائق

---

(١) محمد عفيفى مطر : شهادة البكاء فى زمن الضحك ط . دار العودة - بيروت - ١٩٧٣ ، ص ١٦ .

تعبيره وأنساق عالمه ، فإنه يقدم فى نفس الوقت صياغة جديدة لواقعه ورؤية فنية مفارقة له ، وبالتالى دعوة جديدة لإدراكه ، وموقفا ثورياً إزاء حركته ... وهذا الإبداع المبتدع – على غير مثال سابق – يجعل الشاعر « أسطورة » قد تبدو عصية التذوق ، كما يجعل الشعر « قضية » تثير من الخلاف حوله بأكثر مما توحى بالاتفاق ، ولكن (الخلاف) على هذا النحو هو وحده المحرك الحقيقى لثراء الفن وتطوير النقد .. وبالتالى فإنه المعبر الفعلى لإدراك الكون جماليا بالنسبة للمبدع والمتذوق على السواء .

ولتوضيح القضية النقدية التى نثيرها نذكر أن الشاعر المصرى المعاصر محمد عفيفى مطر يعد واحداً من طليعة المجددين فى مجال البحث عن صياغة فنية ثورية جديدة ، بل ومغايرة تماماً لبنية القصيدة العربية المعاصرة . لقد قاد حركة التجديد فى شعرنا العربى المعاصر : نازك الملائكة وبدر شاكر السياب ونزار قبانى وأحمد عبد المعطى حجازى وصلاح عبد الصبور ، ثم ما لبث أن انضم إليهم : عبد الوهاب البياتى وفدوى طوقان ومحمود درويش وسميح القاسم وعلى أحمد سعيد « أدونيس » وعبد العزيز المقالح وحسب الشيخ جعفر وفتحى سعيد وعفيفى مطر وأبو سنة وأمل دنقل ومهران السيد وفاروق شوشة وفاروق جويدة وأحمد سويلم ووفاء وجدى وبدر توفيق وكمال عمار و .... هذه الأسماء الشاعرة هى التى تكابد اليوم من أجل تجديد مسار الشعر العربى ، وإحداث ثورة فنية حقيقية فى القصيدة العربية ، لكى (يعاصر) الشعر العربى الشعر العالمى من حيث الجسارة والقدرة على استخدام أدوات تشكيل متطورة وراقية ، تفصح عن إدراك جديد للفن والواقع .

ومحمد عفيفى مطر من أكثر شعرائنا المعاصرين حرصاً على تجويد صياغته وتجديد قصيدته ، وفى نفس الوقت من أكثرهم استمرارية وغزارة فى الإنتاج . ومنذ بدأت مسيرته الشعرية مع مشارف سنة ١٩٦٠ تقريبا أصدر ما يقرب من عشرة دواوين هى :

مكابدات الصوت الأول – الجوع والقمر – من دفتر الصمت – يتحدث الطمى – ملامح من وجه الأنها دوقليتس – كتاب الأرض والدم – شهادة البكاء فى زمن الضحك – كتاب الأقنعة – رسوم على قشرة الليل .. وأخيرا ديوان : النهر يلبس الأقنعة سنة ١٩٧٦ .

مع هذا التواصل الفنى ، وذلك الاستمرار العنيد ، لا يعد عفيفى مطر (شاعرا جماهيرياً) .. بالنسبة لقراء الشعر اليوم ، بل يرى فيه كثير من خصوم الحركة الشعرية المعاصرة نموذجا جيدا للحديث عن ظاهرة (الغموض والتعقيد) فى الشعر العربى المعاصر . من هنا فإن شعر عفيفى مطر كصوت منفرد يثير كثيرا من قضايا الفن المعاصر ومقومات القصيدة الجديدة ، وبشكل (ظاهرة) خطيرة لا بالنسبة لجماليات القصيدة فحسب ، وإنما بالنسبة لأدوات النقد ومعايير الدراسة الأدبية .

ولا نريد أن نتعجّل فنحكم للشاعر أو عليه .. ولا أن نتسرع فى إصدار رأى مُسبق فى شعره ، الذى يشكل ظاهرة فنية لها خطرها وجلالها بالنسبة لواقعنا الأدبى اليوم .

وفى تقديرى أن حكما عاما على تجربة عفيفى مطر فى مجمل دواوينه ، بله أن تكون فى ديوان واحد من إنتاجه الغزير يعد جريرة أدبية وأغلوطة نقدية . إن الشاعر الحق يجدد أدواته ، وبالتالى رؤيته الفنية وموقفه الفكرى مع كل تجربة أدبية يشكلها ومع كل قصيدة يصوغها . لم يعد متصورا فى عالم ،

تتغير حركته المادية والإنسانية كل لحظة - بما يملك من أدوات علمية هائلة وخطيرة - ألا يواكب الفنان - بما أوتى من رهافة وحساسية - حركة عالمه ، بل إن التأثر به هو القاعدة ، وهو المجدد الحقيقى لطبيعة الفن وقدرة الفنان .

* * *

على هذا سوف نتأمل تجربة عفيفى مطر عبر قصيدة واحدة من ديوانه « كتاب الأرض والدم » (١٩٧٢) - الذى صدر عن وزارة الإعلام العراقية - وهى قصيدة « بوابةُ طُليطلة » ، لنتعرف من خلالها على طبيعة البنية الفنية لشعره ، وسمات الأدوات الفنية المصورة لتجربته والمميزة لصوته الشعرى .

(١)

« لبستُ قناعَ التنكّرِ علىَّ أسوحُ بليلِ المدينة
وأدخلُ - عبرَ شوارعها وظلامِ الأزقة
أخوضُ فى جوّ أحلامها ورؤاها الدفينة
(وعلَّ رجال الدّركِ
يقولون فى الصبح : كان هنا
تفقّدنا واحداً واحداً ، وتفقّد صمتَ الرعية
وأحزانَها ومخاوفَها ، وتفقدَ قُفلَ السكينة
وأبوابهَا الخشبيّة) .
فقابلنى دركىٌّ (رأى كلَّ من جلسوا فوقَ عرشِ البلاد
وعلّقَ فى طوقهِ المتهدّلِ مفتاحَ ميراثهم
وأقنعةَ الأوجهِ الملكية)
وأشار فأسقطَ عنّى قِناعى
هنا الباب .. هل جئتَ بالقفل حتى يتمَّ العماد
فكل مليكٍ له عروةٌ فى الرّتاج
إذا وضع القفلَ فيها تنفسَ أسلافُه واستراحوا
وقدّسهُ وارثوه ..

(٢)

تخذتُ – من اليأس – سورَ المدينة
كتابي وحُجَجي
قرأتُ تواريخَها ورؤاها الخفية
وأورادَها ونوافلَ أعيادِها البربرية
وقلّبتُ في كنزِها المتجددِ من عرباتِ النفايه
وميراثها الممتعض بين المزابل
رأيتُ عصارةَ أحزانِها وخُطاها
بقايا طعامٍ رخيصٍ وعُقى مواليدِها ومداميكَ من غائطٍ
ورأيتُ القشور
– وقد مَضَغتْ مرتين – وحطّت حروفُ التهجي
ذباباً يطنُّ بأسماء أبنائها أجمعين ...

(٣)

يقول ليَ التّركي :
« وكان أبوك الملك
يجيء ويسألني عن جذورِ القبيلة
وأفرع أنسابها واختلاط دماها
فأحكي وأحكي
ويسألني عن طقوسِ الزّناجِ وبابِ المدينة
فأبكي وأبكي
وأصمت » .

(٤)

زرعتُ على القبرِ زيتونةً (في رُؤى النوم) مَدّت
ظلالَ الفروعِ
وأثقلَها الزهرُ حتى انحنت (كنتُ من فرحتي

أتشقق كالطمى من قهقهات الدموع
وتطلع من جسدى غابة وتشق السنابل
مطالعها فى كتاب الضلوع
رأيت الفهامة حُبلى .) ومن خلل الماء فيها
رأيت شرارة برق تطير بزيتونة الحُلم ،
تهوى بأفرعها الموقده
تشق الحجارة عن ساكنى القبر ،
أمى تجر بقايا الكفن
ويصعد هيكلها الشجى وتصرخ جوعاً
لكسرة خبز وحفنة ماء
وتصرخ .. تصرخ .. يرفض صوتها من غواشى المنام ، فيسقط عنى قناعى
وأدخل مملكة الجوع .. تاجى على الرأس ، والصولجان
رتاج وقفل صدئ ..

(٥)

وفى ظلمة الليل .. كنت أرى الحاشية
تهمهم فى الردهات الوسمية
وتنسج من غمضات الوقيعة
صدىً يتهدّل فوقى ببرق الوساوس
وخوف العدو وخوف الصديق
وجئت وحيداً وناديت من جلسوا فوق عرش المدينة
أردّ لهم كلّ ما أورثونى
وحطمت باب الطقوس القديمة ،
خلعت أقفال تتويجهم ودخلت البناء العتيق
أقلّب عينى بين التصاوير
كانت وجوه الملوك
بكائية تتابع (هذا أنا يا ملوك الفجيعة

أردُّ لكم نَسَبِى) وأرى عند خَطِّ التقاطع
تصاويرَ وجهِى المُطارد
وسيلَ الجيوشِ الغريبة
نسيجُ مملكتى المستحمّة بالدّمع والدم .
كانت سطورُ النبوءة
عناقيدَ من صرخاتِ القبيلة تحت السنابك ..
(هنا أعينُ الراحلين
مفتّحةً ، والأكفُّ
على مَقبض السيفِ معرُوقةٌ يابِسه
ووردُ الجراحَ يجفُّ
ويلتفُّ تحت نسيجِ الضَناكِب .
فيا أوّلَ الداخلين
تأمل ملامَحَ وجهك فوقَ الحوائط
وجهّز خيولك
لترحلَ - قبلَ اندفاقِ الجيوشِ الغريبة -
لتنفاكَ بينَ الزمان وبين المكان ..)
أراهم يجيئون تاجاً من الشوك حولَ المدينة
يُضيفُ فتنفرُ من ناظريها الدماء
ويصطبغُ الحُزنُ والكلماتُ الحزينة
أراهم رُؤىً فى العيونِ النواعس
وهمهمةً - فى عيون الأخلاّء - تَضفرُ زهرَ الخيانة
وتجدلُ باقاتِ مَوتى
(صفوفُ السّبايا تَدُور
ويلمعُ ضوءُ الميادين ، تفرغُ فى واجهاتِ المتاجر
طيورُ الإشاعاتِ
يا أوّلَ الداخلين
تأمل رسومَ الخرائط

وأرغفةَ الأرض إذ تتآكلُ تحتَ السيُوف
ويا أولَ الداخلين
تقبّل مصيرَك
وجهّزْ خيولَك
وزوّادةَ السفرِ المُتجدد .. لا أنتَ حيٌّ
ولا أنتَ تدخلُ مملكةَ الميّتين ..)
وفوقَ يدى كان وَشمُ الفراشه
وجنيّةُ البحرِ والزهرةُ الطالعه
بكاءٌ تجمّد ..» .

❁ ❁ ❁

أول ما يبهر المتذوق هو حيرته الشديدة فى وقفة جادة لمحاولة تخيّل عالم القصيدة ، الذى قد يبدو منذ البداية أشعث الأطراف ممزق الأجزاء ، لأنها لا تصوّر نسقا للفكر أو العالم مألوفا أوله نظير .. إن الوجود الوحيد لعالم الشاعر هو نسيج مخيلته .. التى لا ترى العالم فى سكونه ، وإنما من خلال حركته .. ولا تشهد الكون مشاهدة المتأمل المتأثر ، وإنما برؤية المشارك المؤثر . أيضا فإن الشاعر حين يستلهم بعض عناصر تراثية تثرى تجربته وتوحّدُ بينه وبين ماضيه .. لا يتوقف عند التراث الجزئى للفن الذى يعبر به ، وإنما يستلهم كل ما يتصل بتراث أمته : دينيا وفكريا وأدبيا ، وكل ما يتصل بحضارتها ومواريثها الشعبية ، وفى نفس الوقت لا يستنكف ولا يعجز عن التأثر بالتراث العالمى فى مجال الحضارة والثقافة ، أكثر من هذا فقد حطم الشاعر الجديد - إلى حد كبير - تمايز الأنواع الأدبية وتفردها ، وحاول - بجسارة - أن يحطم حدود النوع ، ومزج بين الأنواع الأدبية فى وحدة فنية رحبة بلا ضفاف .. استشرافا لفن جديد يتخطى الحدود ، إلى عالم مشرق يكسر القيود .

ومع مطلع القصيدة يفجأنا الشاعر .. ويُوهم بأنه سوف يتحدّث عن « بوابة طُليطلة » تلك المدينةُ الأندلسية ، التى كان لها ماضٍ عريق أثناء الحكم العربى للأندلس .. ولكن عفيفى مطر من خلال (العنوان) ينبئ بوعيه اليقظ بتراث أمته وماضيها .. أنه يتحسر على ما أصاب المدينة العربية القديمة « طليطلة » ، وفى نفس الوقت يحذر خشية أن تتحول كل مدينة عربية الآن إلى « طليطلة » أخرى .

ولمزيدٍ من اليقظة حتى نلج عالمه،يبين لنا الشاعر أنه قد لبس « قناع التنكر » ليدخل المدينة ، ويخوض فى جو أحلامها ورؤاها الدفينة . وهو هنا منذ الجملة الأولى يوحى بأن صوته لن يكون مباشرا تقريريا .. أو حالما رومانسيا غنائيا .. وإنما رامزا متنكرا واقعيا .. يقدم عالما ذا إيقاع حاد .. مركب .. عصىّ الفهم .. ليكون (مناظراً) لعالم اليوم فى حركته .. وتعقده .. ومشاكله .

كذلك نجد للقصيدة مستويين فى التعبير والتصوير .. مستوى تطور الحركة الدرامية الظاهرة لعالم القصيدة .. ومستوى آخر غير مباشر أقرب إلى استطراد « تيار الوعى » فى الرواية الحديثة .. ولكى ينبه الشاعر إلى ذلك المستوى الداخلى فى التعبير يضعه بين قوسين .. ليؤكد هذه الدلالة ، من ذلك أن الشاعر حين يدخل المدينة يقابله حارسها الدركى ، الذى يصفه بين قوسين بأنه (رأى كل من جلسوا فوق عرش البلاد

وعلّق فى طوقه المتهدّل مفتاحَ ميراثهم
وأقنعةَ الأوجهِ الملكيّة) .

وبدأ الشاعر يتعرف بنفسه على بعض ميراث المدينة المتعفّن ، كما يتدخل الدركى مرة أخرى ليكمل الصورة التى يتعرف عليها الشاعر من منظور آخر .. ليتحد (المنظوران) الجدليان ليشكلا الصورة الفنية لبنية القصيدة .. التى ترسم ملامح مدينة حزينة ثكلى تتحطم على قبورها أغصان الزيتون .. و « تصرخ جوعا لكسرة خبز وحفنة ماء » . وهنا يسقط القناع ويغيب التاريخ والقناع .. لنرى بعد سقوط القناع ويقظة الحلم أننا نعيش الحاضر .. وندخل « مملكة الجوع » لنرى عند خط التقاطع :

« تصاويرَ وجهى المُطارد
وسيلَ الجيوش الغريبة
نسيج مملكتى المستحمّة بالدمع والدم » .

هنا نحس بغرابة الإنسان الذى تصوره القصيدة منفياً بين الزمان والمكان .. إنه يرى الطامة والكارثة ويستشرفها مثل « زرقاء اليمامة » .. ويرى الأعداء قبل مقدمهم .. والخونة يغطون الأعين اليقظة بدثار كثيف من اللؤم والخداع .. وهنا يصبح الإنسان بالضرورة (مريداً) إما : للصحوة القاتلة المحررة ، وإما للاستكانة الذليلة .. والطريق الثالث بينهما عدم حيث « لا أنتَ حىٌّ ولا أنت تدخلُ مملكةَ الميتين .. » .

لكن صوتَ الشاعر يظل جهوريا يقظاً غير زائغ أو متردد ، إنه لا يربكه تعدد الحلول ، فليس ثم إلا طريق واحد صحيح ليسير فيه ويمضى صبوراً مناضلا إليه .. وهنا يتجمد البكاء ليتفجر النداء .. لذلك يختم الشاعر قصيدته ذات الإيقاع « الملحمى » بهذه الفقرة :

« وفوقَ يدى كانَ وشمُ الفراشه
وجنّيةُ البحر والزهرة الطالعة
بكاءً تجمّد .. »

وعلى هذا تعكس القصيدة من خلال أدواتها الفنية الخصبة موقفا جسورا عنيدا ، يغذى به وجدان أمته ، كما يصور ذلك فى قصيدة أخرى حيث يقول :

« غنّيتُ فى أزمنةِ القصورِ والخرائب
فدقّنى الحراسُ وتداً فى وَخَمِ الزّرائب
أنظرُ لا نعكاسِ الأنجمِ البرّاقة
فى أعينِ الأبقار
أدخل فى فسفورها مستدفئاً ، أحلمُ بالخروج
فى لبنِ الضّرُوع » .[٢]

لكن أهم شىء يجب أن تؤكد عليه هنا .. هو درس (الأداة)[٣] فى شعر عفيفى مطر .. وشعر غيره من الشعراء المجددين فى الشعر العربى . لقد كثرت الثرثرة والفوضى حول الأدب ونقده .. ولنقل فى شجاعة إن الأدب الجديد .. يحتاج إلى (بلاغة جديدة) .. وإلى التوصل إلى جماليات جديدة تتلاءم وطبيعة التركيب المتميز للشعر المعاصر .

إن من الظلم بل من الخطأ أن ندرس أدبا جديدا كل الجدة .. ببلاغة قديمة غاية القدم . إن الشاعر الجديد المجدد صاحب رؤية جديدة للفن وفلسفة معاصرة للحياة .. يعيش حياته وفنه بحساسية مرهفة متوترة حادة ، تماثل إيقاع العالم الجديد من حوله ، لذلك فهو يؤلف بين سمات الأنواع الأدبية كلها فى قصيدته .. سواء القديم منها أو المستحدث ، كما أنه يوظف الأسطورة ويستخدم الملحمة ويستعين بحركة الدراما وحياة القصة .. وموسيقى الشعر المركبة . أكثر من هذا أنه يوظف كل التراث الإنسانى ، الذى قرأه بوعى .. ويمزج كل هذا فى وحدة فنية خصبة ، تؤلف بين كل مواريث البشر فى إطار عالم الفن .

عبر هذا المنطلق النقدى الجديد - وحده - يمكن أن نفهم شعر عفيفى مطر وغيره من شعرائنا المعاصرين ، ذلك أن الفن الجديد يطالب متذوقه بأن يقف مع مبدعه على فلسفة واقعية للحياة ونظرة شمولية للكون ، وجماليات جديدة للفن . إن الشعر المعاصر نفسه قد انفلت من إطار التجارب الفنية التى سبق أن قدمها أمثال بدر شاكر السياب وأحمد عبد المعطى حجازى وصلاح عبد الصبور والبيّاتى .. ويحفر اليوم مساراً جديداً يقوده شعراء يبذلون جهدا صبورا ، لا من أجل تجديد الفن العربى فحسب ، بل من أجل تجديد الواقع العربى كله .

وفى النهاية فإن عفيفى مطر شاعر غزير الإنتاج وصاحب موقف تقدمىّ ، إلا أن تشكيل عالمه الشعرى - على مستوى التركيب والتخيّل - مُلغزٌ ومتناثر أو متنافر الأجزاء ، بحيث تبدو المغامرة اللغوية عنده غاية فى حدّ ذاتها ، وهى مغامرة أقرب إلى العبث واللامعقول !!

---

(٢) محمد عفيفى مطر : كتاب الأرض والدم ط . وزارة الأعلام العراقية - بغداد - ١٩٧٢ ص ٤٢ . والمقطع المستشهد به جزء من القصيدة المركبة « إيقاع الغرق » .

(٣) طه وادى : شعر ناجى : المرقف والأداة ط النهضة المصرية - ١٩٧٦ - ص ٩٥ .